

علوم الحديث بين الوهم والظن

المهندس
عبد
الرفاعي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ

بيننا في المحطّات السابقة - عبر عرض الكثير من الروايات - كيف أنّ الحديث وما يُسمّى بعلومه مبنيٌّ على حوامل تاريخيّة ، لا تخلوا من الأخطاء ولا من الأهواء ولا من العصبية ، وبالتالي لا يمكن للروايات الناتجة عن هذه الآليات التاريخيّة أن ترتفع إلى مستوى العلم الذي تتفاعل به مع كتاب الله تعالى ..

... الرواية ليست مقدّسة وليست من السنّة قبل أن يقوم بتصحيحها فلان أو فلان .. وبعد أن يصحّحها فلان أو فلان ، تنتقل فوراً من ساحة التاريخ إلى ساحة المقدّس ، فقط لأنّ فلاناً أعطاهها هذه القدسيّة ، فقبل أن يعطيها هذه القدسيّة لم تكن مقدّسة ، وبعد أن أعطاهها هذه القدسيّة أصبحت نصّاً مقدّساً يملك صلاحية نسخ أحكام كتاب الله تعالى .. أمّا الرواية الأخرى التي لم يصحّحها فلانٌ هذا ، بقيت في ساحة التاريخ ، ولم تنل

شرف هذه القدسيّة ، شأنها بذلك شأن هذه الرواية المقدّسة قبل أن يُعطيها هذه القدسيّة فلانٌ من الناس ..

.. معايير بشريّة .. أدوات تاريخيّة .. رؤى ليست مجردة عن الانتماءات المختلفة .. أهواء وعصبيّات ... كلُّ ذلك تحكّمت فُرضت بقوة الإلزام الجبري على أنّها علوم لا يأتيها الباطل لا من بين يديها ولا من خلفها .. وفُرض على الأمة ما نتج عنها من روايات ، بحيث أصبحت هذه الروايات أطرًا مذهبيّة وطائفية لا يجوز تجاوزها ، مهما خالفت صريح كتاب اله تعالى وثوابت العقل والمنطق .. هذه هي حقيقة ما يُخطب ليل نهار فوق رؤوس العوام بأنّ هناك علوماً مضبوطة دقيقة اسمها علوم الحديث ، رجالها على حق مهما قالوا ، وما يصفونه بالصدق فهو صادق ، وما يصفونه بالكذب فهو كاذب .. ومهما قدّمنا من أدلّة وبراهين نأتي بها من كتاب الله تعالى ، عبر ثوابت العلم والعقل والمنطق ، لا تعني شيئاً بالنسبة لعابدي أصنام التاريخ ، فقط لأنّ ما نأتي به من كتاب الله تعالى لا يتوافق مع رواياتهم ، ولم تنطق به رجالهم ..

.. وحتى لا نشئت أفكارنا ولا نعدّد مصادرنا ، وكوننا نتناول في هذه المحطّة بنيويّة ما يُسمّى بعلوم الحديث ، سنحصر استشهادنا في هذه المحطّة في إطار مرجعين اثنين هما : الكفاية في علم الرواية ، لمؤلفه : الخطيب البغدادي (أحمد بن علي بن ثابت) المتوفى سنة : ٤٦٣ هجري ، ومقدّمة ابن الصلاح لمؤلفه (تقي الدين عثمان بن عبد الرحمن) المعروف بابن الصلاح ، وهما كتابان لهما اعتبارهما عند أهل الحديث ..

.. كلُّ من يقرأ (قراءة واعية) المصادر الأولى لما يسمّى بعلوم الحديث ، سيرى أنّه لا يُوجد إجماعٌ ولا على جزئية واحدة من المقاربات التاريخيّة التي اعتبروها علماء ، حتى بين المطّبلين والمزّمرين وأتباعهم الذين يسعون لجعل هذه المقاربات التاريخيّة جزءاً منهج الله تعالى .. فلا تُوجد جزئية من مقدّمات ما يعتبرونه علماء إلاّ وفيها اختلاف يدور من النقيض إلى نقيضه ، بحيث لو كانت هذه الجزئية المقدّمة الوحيدة التي يعتمدون عليها ، لكان الأمر كافياً للقول بأنّ ما يُسمّى بعلم الحديث لا يتجاوز كونه مقاربات تاريخيّة فُصل الكثير من جوانبها على مقاسات العصبيّات المذهبيّة والطائفية ..

.. وكنا قد بينا - في محطّة سابقة - كيف أنّهم اختلفوا في تعريف الصحابي .. لننظر

في النصوص التالية من كتاب : الكفاية في علم الرواية ..

[[أخبرني الحسين بن أبي الحسن الوراق ثنا عمر بن أحمد الواعظ ثنا محمد بن إبراهيم ثنا محمد بن يزيد عن الحارث عن ابن سعد عن الواقدي محمد بن عمر قال أخبرني طلحة بن محمد بن سعيد بن المسيب عن أبيه قال كان سعيد بن المسيب يقول : الصحابة لا نعدهم إلا من أقام مع رسول الله ﷺ سنة أو سنتين وغزا معه غزوة أو غزوتين . قال ابن عمر ورأيت أهل العلم يقولون : كلّ من رأى رسول الله ﷺ وقد أدرك اللحم وأسلم وعقل أمر الدين ورضيه فهو عندنا ممن صحب النبي ﷺ ولو ساعة من نهار]]

[[أخبرنا محمد بن أحمد بن رزق البزاز وعلي بن محمد بن بشر السكري قالوا أنا عثمان بن أحمد بن عبد الله الدقاق ثنا الحسن بن عبد الوهاب بن أبي العنبر ثنا أبو جعفر محمد بن سلمان المقري البصري قال حدثني عبدوس بن مالك العطار قال سمعت أبا عبد الله أحمد بن حنبل وذكر من أصحاب رسول الله ﷺ أهل بدر ، فقال : ثم أفضل الناس بعد هؤلاء أصحاب رسول الله ﷺ القرن الذي بعث فيه ، كلّ من صحبه سنة أو شهراً أو يوماً أو ساعة أو رآه فهو من أصحابه]]

[[أخبرنا أبو عبد الله الحسين بن محمد بن الحسن أخو الخلال أنا إسماعيل بن محمد بن أحمد بن حاجب الكشاني ثنا محمد بن يوسف الفربري قال قال محمد بن إسماعيل البخاري : ومن صحب النبي ﷺ أو رآه من المسلمين فهو من أصحابه]]

.. ونقتبس أيضاً النصّ التالي من كتاب : مقدّمة ابن الصلاح ..

[[اختلف أهل العلم في أنّ الصحابي من ؟ ..

فالمعروف من طريقة أهل الحديث : أن كلّ مسلم رأى رسول الله ﷺ فهو من الصحابة .. قال (البخاري) في (صحيحه) : من صحب النبي ﷺ أو رآه من المسلمين ، فهو من أصحابه .. وبلغنا عن (أبي المبيفر السمعاني المروزي) أنه قال : أصحاب الحديث يطلقون اسم الصحابة على كل من روى عنه حديثاً أو كلمة ، ويتوسعون حتى يعدون من رآه رؤية من الصحابة ، وهذا لشرف منزلة النبي ﷺ ، أعطوا كل من رآه حكم الصحبة .. وذكر : أن اسم الصحابي - من

حيث اللغة والظاهر - يقع على من طالت صحبته للنبي ﷺ وكثرت مجالسته له على طريق التبّع له والأخذ عنه . قال : وهذا طريق الأصوليين ..

قلت : وقد روينا عن (سعيد بن المسيب) : أنه كان لا يعدّ الصحابي إلاّ من أقام مع

رسول الله ﷺ سنة أو سنتين ، وغزا معه غزوة أو غزوتين]]

.. إذا .. لا يُوجد إجماع على تعريف الصحابي ، والعبارة]] اختلف أهل العلم في

أنّ الصحابي من ؟ ..]] واضحة وجليّة .. فما بين كون كلّ من رأى النبي ﷺ ولو ساعة من نهار هو من أصحابه .. وبين القول بأنّه لا يكون صحابياً إلاّ من أقام مع رسول الله ﷺ سنة أو سنتين ، وغزا معه غزوة أو غزوتين .. وبين القول بأنّ الصحابيّ كلّ من روى عنه حديثاً أو كلمة .. وبين القول بأنّ الصحابيّ لا بدّ أن يدرك الحلم ويعقل أمر السدين ويرضاه .. بين هذه الاشتراطات اختلافٌ لا يمكن إغماض الأعين عنه .. هذا فضلاً عن كون الآليات التي يتمّ من خلالها تطبيق هذه الاشتراطات المختلفة على الرجال لمعرفة الصحابي منهم ودرجة صحبته حسب المعايير المختلفة أصلاً في تعريف الصحابي ، هي آليات ليست مطلقة ، ولا تخلوا من الأخطاء والأهواء والعصبية ، وبالتالي كلّ ما ينتج عنها لا يعدو كونه مقاربات تاريخية لا ترتفع إلى مستوى العلم واليقين ..

وحتى لو اعتبرنا هذه الاشتراطات مطلقة ، وأنّه لا اختلاف بينها ، وأنّه تمّ إجماعٌ عليها ، حتّى لو افترضنا ذلك ، فكيف بنا أن ندرك دلالات النصوص التالية التي نسوقها من كتاب : الكفاية في علم الرواية ، وذلك في معيار قولهم عن الصحابي بأنّه الذي]] أدرك الحلم وأسلم وعقل أمر الدين ورضيه]]

]] فقد روى الحسن بن علي بن أبي طالب عن النبي ﷺ ومولده سنة اثنتين

من الهجرة ، وكذلك عبد الله بن الزبير بن العوام ، والنعمان بن بشير ، وأبو الطفيل الكناني ، والسائب بن يزيد ، والمسور بن مخرمة .

وروى مسلمة بن مخلد عن رسول الله ﷺ وكان له حين قبض عشر سنين ، وقيل

أربع عشرة سنة .

وتزوّج رسول الله ﷺ عائشة وهي بنت ست سنين ، وابتنى بها وهي بنت تسع ، وروت عنه ما حفظته في ذلك الوقت .

وروى عمر بن أبي سلمة أن النبي ﷺ قال له : ادن يا غلام وسم الله وكل بيمينك مما يليك .

وروى معاوية بن قرّة الزمّني عن أبيه قال : كنت غلاماً صغيراً فمسح رسول الله ﷺ رأسي ودعا لي .

وقال عبد الله بن جعفر بن أبي طالب : كنت غلاماً ألعّب ، فجاء رسول الله ﷺ من سفر فاستقبلته فحملني بين يديه .

وقال يوسف بن عبد الله بن سلام : سماني رسول الله ﷺ يوسف وأقعدني في حجره ، ومسح على رأسي .

وممن كثرت الرواية عنه من الصحابة وكان سماعه في الصغر أنس بن مالك ، وعبد الله بن عباس ، وأبو سعيد الخدري ، وكان محمود بن الربيع يذكر أنه عقل مجة مجها رسول الله ﷺ في وجهه من دلو كان معلقاً في دارهم ، وتوفى رسول الله ﷺ وله خمس سنين]]

]] أخبرنا أحمد بن أبي جعفر حدثنا عبد الرحمن بن عمر بن أبي نصر الدمشقي ثنا أبو علي بن حبيب قال سمعت الربيع بن سليمان يقول سمعت الشافعي رحمه الله وقد سئل عن عبد الله بن الزبير هل سمع من النبي ﷺ شيئاً قال : نعم وحفظ عنه ، ومات النبي ﷺ وهو ابن تسع سنين]]

]] أخبرنا أبو حازم عمر بن أحمد بن إبراهيم العبدوي أنا القاسم بن غانم بن حمويه المهلبّي أنا محمد بن إبراهيم البوشنجي قال سمعت ابن بكير يقول : توفى النبي ﷺ وابن الزبير ابن ثمان سنين ، والمسور بن مخرمة كذلك]]

[[أخبرنا محمد بن أبي الفتح الحربي ثنا علي بن عمر الحافظ ثنا محمد بن القاسم بن زكريا المحاربي ثنا عباد بن يعقوب ثنا ثابت بن الوليد بن عبد الله بن جميع عن أبيه عن أبي الطفيل قال : ولدت عام أحد ، وأدركت من حياة رسول الله ﷺ ثمان سنين]] ..

[[أخبرنا عبد العزيز بن علي الوراق أنا أحمد بن إبراهيم بن الحسن ثنا أبو عمرو يوسف بن يعقوب النيسابوري أنا أبو بكر بن أبي شيبة ثنا وكيع عن موسى بن علي عن أبيه قال سمعت مسلمة بن مخلد يقول ولدت حين قدم النبي ﷺ المدينة وقبض وأنا ابن عشر سنين - خالف عبد الرحمن بن مهدي وكيعاً فيه .]] ..

[[أخبرنا محمد بن أحمد بن رزق أنا إسماعيل بن علي الخطيبي وأبو علي بن الصواف وأحمد بن جعفر بن حمدان قالوا ثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل قال حدثني أبي ثنا عبد الرحمن بن مهدي ثنا موسى عن أبيه عن مسلمة بن مخلد قال قدم النبي ﷺ المدينة وأنا ابن أربع سنين وتوفى وأنا ابن أربع عشرة]] ..

[[وحدثنا علي بن محمد بن عبد الله المعدل أنا الحسن بن صفوان البرذعي ثنا أبو بكر بن أبي الدنيا ثنا محمد بن سعد ، قال عمر بن أبي سلمة يكنى أبا حفص ، توفى رسول الله ﷺ وهو ابن تسع سنين وقد حفظ عن رسول الله ﷺ ، وتوفى في خلافة عبد الملك بن مروان بالمدينة .]]

[[أخبرنا أبو طالب محمد بن محمد بن إبراهيم بن غيلان البزاز ثنا محمد بن عبد الله الشافعي ثنا إسماعيل بن إسحاق ثنا عمرو يعني ابن مرزوق أنا شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس قال : توفى رسول الله ﷺ وأنا ابن عشر سنين مختون . هكذا رواه أبو بشر عن سعيد بن جبيرة ، وخالفه أبو إسحاق السبيعي .]] ..

[[أخبرنا القاضي أبو بكر الحيري أنا أبو علي محمد بن أحمد الميداني ثنا أبو عبد الله محمد بن يحيى هو الذهلي ثنا أبو داود عن شعبة عن أبي إسحاق عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس قال : توفى رسول الله ﷺ وأنا ابن خمس عشرة سنة ، مختون . قال الخطيب : وهذا القول أصح من الأول والله أعلم]] ..

]] أخبرنا ابن الفضل القطان أنا عبد الله بن جعفر بن درستويه ثنا يعقوب بن سفيان قال حدثني سليمان بن عبد الرحمن ثنا الوليد أنا عبد الرحمن بن نمر اليحصبي قال قال الزهري أخبرني محمود بن الربيع الأنصاري وزعم أنه قد عقل عن رسول الله ﷺ وعقل مجّة مجّها رسول الله ﷺ في وجهه من دلو معلق في دارهم قال فتوفى رسول الله ﷺ وهو ابن خمس سنين .
ومن الخالفين جماعة احتج أهل العلم بروايتهم ما سمعوه قبل الاحتلام . [[..

.. وقبل أن نضع الذين لم يبلغوا الحلم (المذكورين في النصوص السابقة) في معايير الاشتراطات (المختلف فيها أصلاً) وذلك في تعريف الصحابي ، وقبل أن نتساءل كيف يُؤخذ الحديث بعد قرونٍ مّا قيل إنّ أطفالاً لم يبلغوا الحلم حين وفاة النبي ﷺ قد رووه عن النبي ﷺ .. قبل ذلك نقول : إذا كان هناك اختلاف - كما نرى - في عُمر ابن عباس حين توفى النبي ﷺ ، ما بين عشر سنين وبين خمس عشرة سنة ، وذلك في روايتين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ذاته ، وإذا كان هناك اختلاف في عُمر مسلمة بن مخلد حين توفى النبي ﷺ بين عشر سنين وأربع عشرة سنة ، وذلك في روايتين عنه ، وإذا كان هناك اختلاف في عُمر ابن الزبير ، فكيف إذا يتمّ الجزمُ بجزئية منقولة عنهم (أو عن غيرهم) عن النبي ﷺ ، بعد قرونٍ من موت النبي ﷺ ، بل ومن موهم ؟!!! .. وأين المنهجية العلمية المتبعة في ذلك ؟!!! ..

والمقدّمة التي تمّ الانطلاق منها في هذه المقاربات التاريخية ، من أنّ الصحابي عدل لكونه صحابياً (مع غضّ النظر عن الاختلاف الذي رأيناه في تعريفهم هم ذاتهم للصحابي) ، هذه المقدّمة نراها في النصّ التالي المقتبس من كتاب : الكفاية في علم الرواية ..

]] باب ما جاء في تعديل الله ورسوله للصحابة وأنه لا يحتاج إلى سؤال عنهم ، وإنما يجب فيمن دونهم . كل حديث اتصل إسناده بين من رواه وبين النبي ﷺ لم يلزم العمل به إلا بعد ثبوت عدالة رجاله ، ويجب النظر في أحوالهم سوى الصحابي الذي رفعه إلى رسول الله ﷺ ، لأن عدالة الصحابة ثابتة معلومة بتعديل الله لهم ، وإخباره عن طهارتهم ، واختياره لهم في نص القرآن . فمن ذلك قوله تعالى : كنتم خير أمة أخرجت للناس ، وقوله : وكذلك جعلناكم أمة وسطاً

لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ، وهذا اللفظ وإن كان عاماً فالمراد به الخاص ، وقيل هو وارد في الصحابة دون غيرهم ، وقوله : لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً ، وقوله تعالى : والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه ، وقوله تعالى : والسابقون السابقون أولئك المقربون في جنات النعيم ، وقوله : يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين ، وقوله تعالى : للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون]] ..

وهذان نصّان من ذات المرجح :

[] وجميع ذلك يقتضى طهارة الصحابة والقطع على تعديلهم ونزاهتهم فلا يحتاج

أحد منهم مع تعديل الله تعالى لهم المطلع على بواطنهم إلى تعديل أحد من الخلق له []

[] القطع على عدالتهم والاعتقاد لنزاهتهم وأنهم أفضل من جميع المعدلين والمزكين

الذين يجيئون من بعدهم أبد الآبدين . هذا مذهب كافة العلماء ومن يعتد بقوله من

الفقهاء [] ..

.. إن استشهدهم على عدالة جميع الصحابة (حسب مصطلحاتهم الوضعية التي

اختلفوا فيها) ، بالآية الكريمة .. ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ

وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ

مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [آل عمران : ١١٠] ، لبناء نتيجة مسبقة

الصنع هي تعديل جميع الصحابة .. هذا الاستشهاد ليس سليماً ، فالآية الكريمة لا تحمل

من الدلالات ما يذهبون إليه ..

كلمة ﴿ أُمَّةٌ ﴾ في كتاب الله تعالى تعني المنهج الفكري ، وهذا ما نراه جلياً في قوله

تعالى : ﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَاثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ ﴿١٦﴾

وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ
 أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿ [الزخرف : ٢٢ - ٢٣]

.. نرى بوضوح أنّ كلمة ﴿ أُمَّةٌ ﴾ في العبارة ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ ﴾ تعني المنهج الفكري والعقدي الذي عليه الآباء ، ولا تعني الآباء كقوم أو كجماعة أو كجيل ، إنّما تعني المنهج الفكري والعقدي الذي كان عليه أولئك الآباء ..

.. إذاً .. علينا أن نُميّزَ - في كتابِ اللهِ تعالى - بين دلالاتِ كلمة ﴿ أُمَّةٌ ﴾ ، وبين دلالاتِ كلمة ﴿ قَوْمٌ ﴾ .. فكلمة أُمَّةٌ مُّجَرَّدَةٌ عن الانتماءِ القومي وعن اللغة والنسل ، فهي تعني مجموعةَ الأفرادِ من زاويةِ المُشْتَرِكِ الذي يجمعُهُمْ .. بينما كلمة ﴿ قَوْمٌ ﴾ هي التي تعني البُعدَ القوميَّ واللغويَّ ، والحركةَ ضمن هذا الإطار ..

.. فَكُلُّ قَوْمٍ ، هم أُمَّمٌ ، بمعنى أنّهم ينتمون إلى مناهجٍ فِكْرِيَّةٍ مُّخْتَلِفَةٍ ، بحيث تصفُ كلمة أُمَّةٌ مجموعةً من هؤلاء القوم لهم مُشْتَرِكُهُم الفِكْرِي .. وكلمة أُمَّةٌ ليست مُقتَصِرَةً على قومٍ مُّحَدَّدِينَ ، فالمُشْتَرِكُ الفِكْرِيُّ الذي له إطارٌ منهجيٌّ يُميّزه ، يتعدّى حدودَ القوم ، بمعنى يشملُ أفراداً لا يمكنُ حصرُهُم في قومٍ مُّحَدَّدِينَ ..

.. فأبو هلب من قومِ الرسولِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، ولكنه ليس من أُمَّتِهِ ، لأنّه ليس على المنهج الذي أنزلَ عليه .. من هُنَا نرى أنّ قوله تعالى ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران : ١٠١] ، يصف ما يصنعه المنهجُ الذي أنزلَ على الرسولِ مُحَمَّدٍ ﷺ .. بمعنى : أنّ مُتَّبِعِي هذا المنهج - مهما كانت قومياتُهُمْ ، ومن أيِّ جيلٍ كانوا ، من السابقين تاريخاً أم اللاحقين - هم خيرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ للناسِ ، لأنّهم يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ، نتيجةَ التزامِهِمْ بهذا المنهج ، فهذا المنهج يصنعُ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ للناسِ .. وهذا لا يعني أنّ

كُلُّ قَوْمٍ الرَسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ أُمَّتِهِ ، كما أَنَّهُ لَا يَعْنِي أَنَّ أُمَّتَهُ ﷺ مَحْصُورَةٌ ضَمَّنَ إِطَارِ قَوْمِهِ .. فَأُمَّتُهُ هُمُ الْمَلْتَمِزُونَ بِمَنْهَجِهِ ، مَهْمَا كَانَ انْتِمَاؤُهُمُ الْقَوْمِي ..

.. والعبارة القرآنية : ﴿ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ

بِاللَّهِ ﴾ بصيغة المضارع والمخاطب كما نرى ، تدلُّ على صفاتٍ يقومُ بها حاملو منهج الله تعالى في كُلِّ زمانٍ ومكان ، فهي تصفُ أعمالَ مُتَّبِعِي منهجِ الله تعالى في كُلِّ زمانٍ ومكان .. والعبارة القرآنية : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ بصيغة الماضي ، تدلُّ على كينونة المنهج الذي يُخْرِجُ للناس تلك الأمة ، فكلمة ﴿ كُنْتُمْ ﴾ بصيغة الماضي تدلُّ على الكينونة ، كون الأمة المعنية منهجاً مُجرّداً عن الزمان والمكان ..

.. ففي كتابِ الله تعالى حينما تقترن كلمة ﴿ كَانَ ﴾ بما هو فوق الزمان والمكان ،

فإنها تعني الكينونة ، حيث الكينونة مُجرّدة عن الزمان والمكان ، وفي قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء : ١١] لأكبر دليلٍ على ذلك .. وبالتالي فالعبارة القرآنية ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ تعني المنهج المُجرّد عن الزمان والمكان ، الذي بكينونته يُنتجُ خيرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ للناس ..

وفي ورود كلمة ﴿ أُخْرِجَتْ ﴾ بصيغة المبني للمجهول ما يؤكّد صحّة ما نذهب إليه

، فالمنهج من الله تعالى والالتزام من الناس ، وشبيه هذه الصياغة هو قوله تعالى : ﴿ كُتِبَ

عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ ﴾ [البقرة : ١٨٣] ، ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ ﴾ [البقرة : ٢١٦] ..

.. إذا .. الاحتجاج بقوله تعالى ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ

بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ ، على تعديل جميع من رأى النبي

ﷺ من أفراد الجيل الأوّل ليس صحيحاً ولا بأيّ وجهٍ من أوجه التفسير المنطقي المبني على

منهجية علمية مُجرّدة عن الأهواء والعصبيّات المذهبية المسبقة الصنع ..

واحتجاجهم بقول الله تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة : ١٤٣] لتعديل جميع الصحابة (حسب مصطلحاتهم لتعريف الصحابة على اختلافاتها) ، هو أيضاً احتجاجٌ باطل ..

إنَّ المخاطب في هذه الآية الكريمة ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ هو الأُمَّةُ الْمُتَّبَعَةُ لمنهج الرسالة الخاتمة التي أنزلت ونزلت على النبيِّ محمد ﷺ ، إلى قيام الساعة ، وكلمة ﴿ النَّاسِ ﴾ في العبارة ﴿ لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ تعني كلَّ الناس إلى قيام الساعة ، وليس فقط الناس الذين كانوا موجودين زمن الجليل الأوَّل ، وحصر دلالات هذه الآية الكريمة بجزءٍ من أفراد الجليل الأوَّل هو خروجٌ فاضحٌ على دلالات هذا النصِّ القرآني ..

ثمَّ إنَّ كلمة ﴿ أُمَّةً ﴾ تحمل دلالاتٍ واضحةً جليَّةً في كون الأمر لا يتعلَّق بجيلٍ محدَّدٍ أو قومٍ محدَّدين كما بيَّنا .. وفي ورود كلمة ﴿ جَعَلْنَاكُمْ ﴾ بهذه الصيغة دون صيغة (خلقناكم) على سبيل المثال ، ما يقوي صحَّةَ ما نذهب إليه ، فمشتقَّات الجذر (ج ، ع ، ل) عندما تتعلَّق بمسائل غير مادِّيَّة كالمنهج تأتي بمعنى وصف وسمي ، يقول تعالى ﴿ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ أَنْ عِضِينَ ﴾ [الحجر : ٩١] ، ويقول تعالى ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ ﴾ [البقرة : ٢٢٤] ..

ثمَّ إنَّ هذه الشهادة على الناس تتعلَّق بالآخرة ولا يمكن حصرها بالدنيا فقط ، وهذه الشهادة هي ﴿ عَلَى النَّاسِ ﴾ وليس للناس ، والشاهد علينا ليس النبيِّ ﷺ ، إنما هو الرسول بما تحمل هذه الكلمة من دلالة تتعلَّق بالمنهج كما بيَّنا ﴿ لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ .. وكلُّ ذلك يؤكِّد أنَّ المسألة تتعلَّق بالمنهج وأتباعه في كلِّ زمانٍ ومكانٍ وليست محصورة ببعض أفراد الجليل الأوَّل كما يحتجِّون ..

واحتجاجهم بقوله تعالى ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح : ١٨] على تعديل جميع الصحابة ليس صحيحاً على الإطلاق ..

الآية الكريمة كما نرى لا تحمل دلالاتٍ للتعديل ، وهي تحمل دلالات تتعلّق برضوان الله تعالى عن المؤمنين .. ومن جهةٍ أخرى الآية تحمل دلالات خاصةً بفئة من الناس هم ﴿ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾ ، ولا تعني جميع أفراد الجيل الأوّل من الصحابة ..

.. ثمّ إنّ حصر أحكام هذه الآية الكريمة ودلالاتها في إطارٍ لا يتجاوز بيعة أصحاب النبي ﷺ بالحديبية حين بايعوه على نصرته ، وعلى أن لا يفرّوا ، وعلى ألا يولوا الدبر ، وذلك تحت الشجرة ، حيث أرسل النبيُّ عثمان بن عفان برسالته إلى الملا من قريش ، فأبطأ عثمان عليه بعض الإبطاء ، فظنّ أنه قد قُتل ، فدعا أصحابه إلى تجديد البيعة على حربهم ، فبايعوه على ذلك ، وهذه البيعة تسمى بيعة الرضوان ، وقد اختلف في عدد الذين بايعوا ، فمنهم من قال عددهم (١٤٠٠) ، ومنهم من قال عددهم (١٥٢٥) ، ومنهم من قال عددهم (١٣٠٠) ... هذا مختصر القصة التاريخية التي تمّ حصر دلالات هذه الآية الكريمة في إطارها ..

.. نرى في العبارة القرآنية ﴿ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ أنّ الفاء في بدايتها هي للتعقيب ﴿ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ ، ونحن نعلم أنّ علم الله تعالى لما في قلوبهم لا يتأخّر عن مبايعتهم تحت الشجرة ، ولا يتأخّر عن رضاه عنهم ، وما نراه أنّ العلم هو بصيغة الماضي ﴿ فَعَلِمَ ﴾ وليس المضارع ، وبالتالي فالعلم المعنيّ هو علم الله تعالى الكاشف .. فلماذا تأخّر علمُ الله تعالى الكاشف في هذه العبارة القرآنية ، وأتى مسبوقاً بفاء التعقيب ؟!!! ..

هذا يؤكّد أنّ أحكام هذه الآية الكريمة - شأنها بذلك شأن كلّ آيات كتاب الله تعالى - ليست متوقّفة على حادثة تاريخية ، إنّما هي نواميس وأحكام صالحة لكلّ زمانٍ

ومكان .. وحتى لو سلّمنا للإطار التاريخي الذي فرضوه على هذه الآية الكريمة ، فإنّ هذه الآية لا تحمل ما يذهبون إليه ، وذلك لأكثر من سبب ..

فمن جهة .. الآية الكريمة تتعلّق برضوان الله تعالى ، وليس بالتعديل والعلم والضبط في النقل ، فقلوه تعالى ﴿ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ﴾ نراه يتعلّق بمسائل لا علاقة لها بما يذهبون إليه في توظيف هذه الآية الكريمة لتعديل جميع الصحابة ..

ومن جهة أخرى .. الآية لا تشمل كلّ الصحابة الذين عددهم أكبر بكثير من العدد المختلف فيه أصلاً في هذه البيعة ..

الأهم من كلّ ذلك أنّ هذه الآية الكريمة - كما بيّنا - تحمل دلالاتٍ وأحكاماً عامّةً لها إسقاطاتها في كلّ زمانٍ ومكان ، واستشهادهم بها على تعديل جميع الصحابة (الذين اختلفوا في تعريفهم) ليس سليماً على الإطلاق ..

أمّا بالنسبة لاستشهادهم بالآية الكريمة ﴿ وَالسَّيْقُوتِ الْأُولُونَ مِنَ الْمُهَجْرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة : ١٠٠] على تعديل جميع الصحابة ، فقد بيّنا في محطة سابقة (فرضية عدالة الصحابة بين الوهم والحقيقة) كيف أنّ هذا الاستشهاد ليس سليماً على الإطلاق ..

.. وقد بيّنا أنّه في حال حمل الآية الكريمة محملاً تاريخياً كما يريدون ، فعلينا أن لا نغض أعيننا عن كلمة ﴿ مِنْ ﴾ في العبارة القرآنيّة : ﴿ وَالسَّيْقُوتِ الْأُولُونَ مِنَ الْمُهَجْرِينَ وَالْأَنْصَارِ ﴾ ، والتي تحمل معنى التبويض .. وكيف بنا أن نعدّل كلّ أفراد الجيل الأوّل (حسب تعريفهم للصحابيّ بأنّه من رأى النبيّ ﷺ) في الوقت الذي نقرأ فيه الآية التالية مباشرةً للآية الكريمة التي يستشهدون بها ..

﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ ۖ وَمِنَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۗ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۗ سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابِ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ [التوبة : ١٠٠ - ١٠١]

.. ألا تنطبق تعاريف الصحابة التي وضعوها على أهل المدينة الذين شاهدوا وعاصروا النبي ﷺ حوالي عشر سنين ، والذين يصف الله تعالى بعضهم أنه مرد على النفاق ﴿ وَمِنَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ ﴾ ؟ ..

وبيّنا أن الأولى هو إطلاق دلالات الآية الكريمة لتشمل السابقين في القربى إلى الله تعالى في كل زمان ومكان ، وبيّنا كيف أن ورود كلمة ﴿ اتَّبَعُوهُمْ ﴾ بصيغة الماضي ، وليس (يتبعوهم) بصيغة المضارع ، يدل على دلالات تتجاوز الجانب التاريخي الذي فسّرت به هذه الآية الكريمة ، وبيّنا أن كلمة ﴿ وَالسَّابِقُونَ ﴾ في كتاب الله تعالى ، وردت بدلالات مجردة عن السبق التاريخي ، حاملة معنى السبق الإيماني والقربى من الله سبحانه وتعالى ..

﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١﴾ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢﴾ فِي جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٣﴾ ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٤﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴾ [الواقعة : ١٠ - ١٤]

ولا داعي لإعادة ما قلناه ، فالاستشهاد بهذه الآية الكريمة على تعديل جميع الصحابة ، حسب تعريفهم هم للصحابي ، هو خروج فاضح على دلالات كتاب الله تعالى ..
أما استشهادهم بقوله تعالى ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١﴾ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢﴾ فِي جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٣﴾ ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٤﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴾ [الواقعة : ١٠ - ١٤] ، فمن الواضح أنه استشهاد ليس صحيحاً على الإطلاق ..

فالسبق المعني هو سبق إيماني مجرد عن التاريخ ، وعن الأديان ، فهذه المرتبة ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴾ ينالها كل من يستحقها من آدم عليه السلام إلى قيام الساعة .. ولكن الأمر بالنسبة للغارقين في مستنقع الروايات التاريخية أنهم أصبحوا لا يرون دلالات كتاب الله تعالى الواضحة الجلية إلا من منظار رواياتهم ..

.. واستشهادهم بقوله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ

الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال : ٦٤] على تعديل جميع الصحابة حسب تعريفهم للصحابي ، يظهر فساده واضحاً جلياً ، ولا داعي للإبحار في دلالات هذه الآية الكريمة ، فالآية جلية في متبعي النبي ﷺ دون غيرهم ﴿ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، وكنا قد رأينا كيف أن النبي ﷺ ذاته لم يكن يعلم بعض الذين مردوا على النفاق من أهل المدينة .. ولننظر في النص التالي الذي استشهدوا به على تعديل جميع الصحابة ..

﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر : ٨ - ٩]

ما نراه في هذا النص الكريم أن المعنيين يتصفون بعدة صفات في الوقت ذاته ، فبين العبارات الحاملة لهذه الصفات لا نرى عطفاً بكلمة (أو) ..

الصفة الأولى أنهم فقراء ﴿ لِلْفُقَرَاءِ ﴾ ..

الصفة الثانية أنهم مهاجرون ﴿ الْمُهَاجِرِينَ ﴾ .. وبالتالي فليس كل الفقراء

معنيين بذلك ، إنما فقط الفقراء المهاجرون ..

الصفة الثالثة أنهم أُخرجوا من ديارهم وأموالهم بشكلٍ كاملٍ وليس من بعضها ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾ .. وبالتالي فليس كلّ الفقراء المهاجرين معنيين بذلك ، إنّما فقط الفقراء المهاجرون الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم ..

الصفة الرابعة أنهم يبتغون فضلاً من الله تعالى ورضواناً ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ .. وبالتالي فليس كلّ الفقراء المهاجرين الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم معنيين بذلك ، إنّما فقط الفقراء المهاجرون الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم الذين يبتغون فضلاً من الله تعالى ورضواناً ..

الصفة الخامسة أنهم ينصرون الله تعالى ورسوله ﴿وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ .. وبالتالي فليس كلّ الفقراء المهاجرين الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم وابتغوا فضلاً من الله تعالى ورضواناً معنيين بذلك ، إنّما فقط الفقراء المهاجرون الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله تعالى ورضواناً ينصرون الله تعالى ورسوله ..

بناء على هذه الصفات مجتمعة استحقوا شهادة الله تعالى بصدقهم ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ .. وهذه الصفات مجتمعة لا يتّصف بها جميع الصحابة حسب تعريفهم هم للصحابة ..

ومّا يؤكّد صحّة ما نذهب إليه في إطلاق دلالات هذا النصّ الكريم ، وأنّه لا يعني أبداً تعديل جميع الصحابة (حسب تعريفهم للصحابي بأنّه من رأى النبي ﷺ) ، ممّا يؤكّد ذلك هو الآية الثانية ..

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الفتح : ٩]

قالوا : المراد من الدار المدينة ، وهي دار الهجرة تبوأها الأنصار قبل المهاجرين ، بمعنى : اتخذوا المدينة مدينة النبي ﷺ فابتنوها منازل ، واتخذوا الإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ من قبل المهاجرين ، يجيئون من هاجر إليهم ..
ونرى فساد ما ذهبوا إليه ، من النقاط التالية ..

كيف تبوأ الأنصار (حسب المفهوم التاريخي) الإيمان قبل المهاجرين ، ونحن نعلم أن المهاجرين سبقوا الأنصار (زمنياً) في مسألة الإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ !!!؟ ..
وأني تأويل لإخفاء هذه الحقيقة اللغوية بهدف فرض الدلالات التاريخية على هذه الآية الكريمة ، هو ذرٌّ للرماد في الأعين ، وخروجٌ على ظاهر صياغة النصِّ القرآني ..

إن كان الأمر مسألة لا تخرج عن الحدث التاريخي في مسألة المهاجرين من مكة إلى المدينة ، والأنصار الذين استقبلوهم في المدينة ، فإن الذين يجيئون من بعدهم هم حدثٌ مستقبليٌّ بالنسبة للحدث الأول ، وهذا تناسبه صيغة المضارع ، وليس الماضي .. ولكن ما نراه في الآية التالية مباشرة أن مجيء من بعدهم هو بصيغة الماضي وليس المضارع

﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [الفتح : ١٠]

.. فكلمة ﴿ جَاءُوا ﴾ بصيغة الماضي جلّية في كون المسألة ليست محصورة بالجانب التاريخي ، وأنها مسألة تتعلق بعلم الله تعالى الكاشف المجرد عن التاريخ ، ولها إسقاطاتها في كلِّ زمانٍ ومكان ..

وصف المعنيين في هذا النصِّ بكلِّ الصفات التي رأيناها مجتمعة ، ينفي نفياً قاطعاً صحّة استشهادهم بهذه الآية الكريمة على تعديل جميع الصحابة (حسب تعريفهم هم للصحابي) ، فليس كلٌّ من رأى النبي ﷺ يتّصف بهذه الصفات مجتمعة ..
.. إذاً .. ما يُقال بأن الصحابة كلّهم عدول ، وما قرأناه في كتاب الكفاية في علم

الرواية : [] القطع على عدالتهم والاعتقاد لنزاهتهم وأفضل من جميع المعدلين

والمزكين الذين يجيئون من بعدهم أبد الأبدين . هذا مذهب كافة العلماء ومن يعتد بقوله من الفقهاء] ، لا دليل عليه في كتاب الله تعالى على الإطلاق .. وبإمكان كلّ باحث عن الحقيقة أن يرى ذلك من خلال الروايات التي عرضناها في المحطّات السابقة ، والتي هي من مراجع لا يستطيع عابدهو أصنام التاريخ الطعن بها .. فكيف يستقيم التعديل المتوهم مع الأحداث التي لا ينكرها أحد ، من معركة الجمل إلى معركة صفين إلى غيرها الكثير من الأحداث والخلافات التي لا تنسجم أبداً مع التعديل الذي يذهبون إليه ..

.. ولذلك من الطبيعي أن يُتَّهم كلُّ من يستعمل عقله ويحترم صياغة كتاب الله تعالى بأنّه من أهل البدع .. هذا ما نراه في النصّ التالي الذي نقتبسه من كتاب الكفاية في علم الرواية ..

]] وذهبت طائفة من أهل البدع إلى أنّ حال الصحابة كانت مرضية إلى وقت الحروب التي ظهرت بينهم وسفك بعضهم دماء بعض ، فصار أهل تلك الحروب ساقطي العدالة ، ولما اختلطوا بأهل النزاهة وجب البحث عن أمور الرواة منهم]]

وحتى لو طلقنا عقولنا مخافة اتّهامنا بأننا من أهل البدع وسلّمنا بعدالة جميع الصحابة ، فهل ما رووه عن النبي ﷺ كُتِبَ في نصوص حُفِظت في كُتُب ، أم نُقل بعد قرون عبر من أتى بعدهم ؟ .. لقد بيّنا في محطّة سابقة لكلّ من يملك ذرّةً من عقل أو منطق كيف أنّ الحديث لم يُكتب أبداً في عصر النبي ﷺ ، ولا في عصر الصحابة ، وبالتالي فثبوت مصداقية الرواية يقتضي تعديل الرواة الذين نقلوا الروايات ابتداءً بالصحابة وانتهاءً بمن أخرج تلك الأحاديث ، وأيّ حرق في ذلك يرفع عن الرواية صفة اليقين ..

وإذا كان الحديث في الجيل الأوّل قد نُقل على المعنى ، فمن المؤكّد أنّ الحديث وصل في وقت إخراجه إلى معنى معنى المعنى ، هذا في حال فرض عدالة جميع الرواة ومصداقيّتهم .. لننظر في النصوص التالية المقتبسة من كتاب : الكفاية في علم الرواية ..

]] وأخبرنا أبو طاهر محمد بن الحسن بن عيسى الناقد واللفظ له قال أنا أحمد بن جعفر بن حمدان قال ثنا جعفر بن محمد الفريابي قال حدثني أحمد بن صالح قال ثنا معن قال ثنا معاوية بن صالح عن العلاء بن الحارث عن مكحول قال دخلنا على واثلة بن الأسقع فقلنا يا أبا

الأسقع حدّثنا حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ ليس فيه وهم ولا نسيان فقال هل قرأ أحدٌ منكم الليلة من القرآن شيئاً؟ قالوا نعم قال فهل زدتم ألفاً أو واواً أو شيئاً؟ فقلت إنّنا نزيد وننقص وما نحن بأولئك في الحفظ فقال هذا القرآن بين أظهركم وأنتم تدرسونه بالليل والنهار فكيف ونحن نحدث بحديث سمعناه عن رسول الله ﷺ مرّة أو مرّتين ، إذا حدّثتكم على معناه فحسبكم]]

]] أخبرنا محمد بن علي الحربي قال ثنا علي بن عمر الحافظ قال ثنا عبد الله بن سليمان بن الأشعث قال ثنا عبد الله بن محمد بن النعمان قال ثنا كثير بن يحيى بن كثير قال حدثني أبي قال ثنا سعيد الجريري عن أبي نضرة عن أبي سعيد قال : كنا نجلس إلى النبي ﷺ عسى أن تكون عشرة نفر نسمع الحديث فما منا اثنان يؤديانه غير أن المعنى واحد.]]

]] أخبرنا أبو القاسم الأزهري قال ثنا علي بن عمر الحافظ قال ثنا أحمد بن محمد بن سلم قال ثنا الزبير بن بكار قال حدثني محمد بن المنذر عن جده هشام بن عروة عن أبيه قال قالت لي عائشة رضي الله عنها : يا بني إنه يبلغني أنك تكتب عنى الحديث ثم تعود فتكتبه فقلت لها : أسمعك منك على شيء ثم أعود فأسمعه على غيره ، فقالت : هل تسمع في المعنى خلافاً ؟ قلت : لا ، قالت : لا بأس بذلك]]

]] أخبرنا أبو محمد الحسين بن علي بن محمد بن أحمد بن بشار السابوري بالبصرة قال ثنا محمد بن أحمد بن محمود العسكري قال ثنا أحمد بن عثمان بن أبي منصور السكوني قال ثنا محمد بن الوزير وعمرو بن عثمان قالا ثنا الوليد بن مسلم عن عبد الله بن العلاء عن بسر بن عبيد الله عن أبي إدريس أنّ أبا الدرداء كان يحدث بالحديث عن رسول الله ﷺ فإذا فرغ منه قال هذا ، أو نحو هذا ، أو شكله]]

]] أخبرنا الحسن بن علي التميمي قال أنا أحمد بن جعفر بن حمدان قال ثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل قال حدثني أبي قال ثنا أبو قطن قال ثنا ابن عون عن محمد قال : كان أنس إذا حدث حديثاً عن رسول الله ﷺ ففرغ منه قال أو كما قال رسول الله ﷺ .]]

]] أخبرنا محمد بن أحمد بن رزق قال أنا عثمان بن أحمد الدقاق قال ثنا حنبل بن إسحاق قال حدثني أبو عبد الله يعني أحمد بن حنبل (ح وأخبرنا) ابن رزق أيضا قال أنا إسماعيل بن علي الخطبي وأبو علي بن الصواف وأحمد بن جعفر بن حمدان قالوا ثنا عبد الله بن أحمد قال حدثني أبي قال ثنا عبد الرزاق عن معمر عن أيوب عن محمد بن سيرين قال : كنت أسمع الحديث من عشرة ، المعنى واحد واللفظ مختلف .]] ..

]] أخبرنا أبو نعيم الحافظ قال ثنا إبراهيم بن محمد بن يحيى المزكي قال أنا محمد بن إسحاق الثقفي قال ثنا إسحاق يعني بن راهويه قال أنا إسماعيل بن عليه عن ابن عون قال : كان الحسن والنخعي والشعبي يحدثون بالحديث مرّة هكذا ومرّة هكذا فذكر ذلك لابن سيرين فقال : إنهم لو حدثوا كما سمعوا كان أفضل .]] ..

]] أخبرني الحسن بن أبي طالب قال ثنا عمر بن محمد بن علي الناقد قال ثنا عمر بن محمد بن نصر الكاغذي قال ثنا إسحاق بن أبي إسرائيل قال ثنا حرب بن ميمون قال ثنا هشام قال : قيل للحسن يا أبا سعيد إنك تحدثنا بالحديث اليوم وتحدث من الغد بكلام آخر ؟ فقال : لا بأس بالحديث إذا أصبت المعنى .]] ..

]] أخبرنا البرقاني قال أنا ابن خميرويه الهروي قال أنا الحسين بن إدريس قال ثنا ابن عمار قال ثنا المعافي عن مسعر عن عمرو بن مرة قال : إننا لا نستطيع أن نحدثكم الحديث كما سمعناه ولكن عموده ونحوه .]] ..

]] أخبرني الحسين بن علي الطناجيري قال أنا عمر بن أحمد بن عثمان الواعظ قال ثنا الحسين بن أحمد بن بسطام الزعفراني قال ثنا سلمة بن شبيب قال ثنا عبد الرزاق قال قلت لسفيان الثوري : حدثنا بحديث أبي الزعراء كما سمعت قال : يا سبحان الله ومن يطيق ذلك ؟ إنما نجيتكم بالمعنى .]] ..

.. وربّ قائل يقول : هناك روايات أخرى تحمل بيانا يفيد أنّ الحديث نُقل بحرفيته ، نقول : هذا دليل على تناقض الروايات وليس على صحّة قول هذا القائل ، فيجب ألا ننسى أنّ هذه النصوص كُتبت بعد قرون من موت من يقال بأنهم رووها ، وأنّها انتقلت

إلينا عبر أجيال طحنتها الحروب والعصبيّات المذهبيّة والقَبليّة .. ومن جهة أُخرى لو نظرنا في متون ما بين أيدينا من روايات ومن تناقض بينها - كما سنرى إن شاء الله تعالى في محطّاتٍ قادمة - فسنعلم علم اليقين أنّ الحديث تمّ تناقله بالمعنى ، وأنّ فيه كثيراً من الخلط والتناقض والاختلاف والوضع لدرجة يستحيل فيها أن يكون قد نُقل بحرفيته ..

.. فإن كان الصحابة عدولاً وعلينا أن نأخذ ما يُقال بأنهم رووه عن النبي ﷺ دون معايرة على كتاب الله تعالى ، بمجرد أنّهم رأوا النبي ﷺ ، فكيف بنا إذاً أن نفهم النصّ التالي من كتاب : الكفاية في علم الرواية ..

[[أخبرنا القاضي أبو عمر القاسم بن جعفر قال ثنا محمد بن أحمد اللؤلؤي قال ثنا أبو داود قال ثنا نصر بن علي قال أخبرني أبو أحمد قال ثنا عمار بن زريق عن أبي إسحاق قال : كنت في المسجد الجامع مع الأسود فقال : أتت فاطمة بنت قيس عمر بن الخطاب فقال ما كنا لندع كتاب ربنا وسنة نبينا لقول امرأة لا ندري أحفظت أم لا ، وهكذا اشتهر الحديث عن علي بن أبي طالب أنه قال : ما حدّثني أحدٌ عن رسول الله ﷺ إلاّ استحلّفته .

ومعلوم أنه كان يحدّثه المسلمون ويستحلّفهم مع ظهور إسلامهم ، وأنه لم يكن يستحلّف فاسقاً ويقبل خبره ، بل لعله ما كان يقبل خبر كثير ممن يستحلّفهم مع ظهور إسلامهم وبذلهم له اليمين ، وكذلك غيره من الصحابة روي عنهم أنّهم ردّوا أخباراً رويت لهم ، ورواتها ظاهرهم الإسلام]]

.. مع تعريفهم للصحابي وبأنّه فوق الجرح والتعديل ، لماذا كان علي بن أبي طالب يستحلّف مَنْ كان يحدّثه عن رسول الله ﷺ ، مع ظهور إسلام المتحدّث]] ما كان يقبل خبر كثير ممن يستحلّفهم مع ظهور إسلامهم وبذلهم له اليمين]] .. !!!؟ .. فهل يُعقل أنّ عليّاً - وغيره من بعض الصحابة - لم يسمع بالآيات التي يحتجّون بها على تعديل جميع الصحابة ، أي على تعديل جميع من رأى النبي ﷺ حسب تعريفهم للصحابي !!!؟ .. أم أنّهم يفهمون دلالاتها أكثر منه !!!؟ .. وإن كانت هذه الرواية غير صحيحة فكيف

يحتجّون بالكتب الحاملة لها على نقيض ما تحمل - هي والكثير غيرها - من دلالات !!!؟

..

وهذان نصٌّ آخر من المرجع ذاته يبيّن المسألة نفسها ..

[[أخبرنا القاضي أبو بكر أحمد بن الحسن الحرشي قال ثنا أبو العباس محمد بن يعقوب الأصم قال ثنا أبو الحسين محمد بن خالد بن خلي الحمصي بحمص قال ثنا بشر بن شعيب بن أبي حمزة عن أبيه عن الزهري قال أخبرني حميد بن عبد الرحمن بن عوف أن عبد الله بن عتبة بن مسعود قال سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : إن أناسا كانوا يؤخذون بالوحي في عهد رسول الله ﷺ وإن الوحي قد انقطع ، وإنما آخذكم الآن بما ظهر من أعمالكم ، فمن أظهر لنا خيراً أمناه وقرّبناه وليس إلينا من سريرته شيء ، الله يحاسبه في سريرته ، ومن أظهر لنا سوءاً لم نأمنه ولم نصدقه وإن قال إن سريرتي حسنة .]]

.. المسألة لم تقف عند الاختلاف في تعريف الصحابي ، ولم تقف عند لي أعناق دلالات كتاب الله تعالى لفرض أهوائهم عليها في الزعم بأنّها تحمل تعديلاً لكلّ الصحابة ، ولم تقف عند كون الحديث قد نُقلَ بالمعنى عن الرسول ﷺ ، وأنّه تمّ الوضع الكثير فيه ، إنّما تتعدّى ذلك إلى الاختلاف الجلي في الاشتراطات التي تمّت صناعتها لقبول الرواية من الراوي .. ولو عدنا إلى كتب الحديث ذاتها ، والتي يعتمدها العاملون في هذا المجال لرأينا أنّه لا يُوجد اتفاقٌ على شروط الراوي الذي تؤخذ منه الرواية ..

.. إنّ مصداقيّة من يتمّ الأخذ منه مسألة ليست بالقليلة ، لأنّه بإمكانه أن يكذب (سواء كان كذباً متعمّداً أو نسياناً) على لسان من سبقه ، وعند ذلك ما الفائدة من تعديل السابقين إذا كانت أقوالهم ستُنقل عبره إلى اللاحقين .. لو فرضنا جدلاً أنّ الجيل الأوّل من الملائكة ، فماذا يفيدنا هذا الفرض إذا كانت أقوالهم ستُنقل إلينا عبر بشرٍ مرّوا بحروبٍ أحرقت الأخضر واليابس ، وجعلتهم يقطّعون أعناق بعضهم ، ويحتمل فيهم الكذب والصدق ، والنسيان والحفظ ، فما الفائدة من ملائكيّة من سبقهم في معرفة مصداقية المنقول عنهم !!!؟ .. ألاّ يؤثّر هذا الواقع الذي لا ينكره أحدٌ في مصداقيّة نقلهم

؟ .. ألم يختلفوا في الأخذ عن أهل البدع حسب تعريفهم هم لهذه البدع .. لننظر إلى النصّ التالي من كتاب : الكفاية في علم الرواية ..

[[باب ما جاء في الأخذ عن أهل البدع والأهواء والاحتجاج برواياتهم : اختلف أهل العلم في السماع من أهل البدع والأهواء ، كالتدريية والخوارج والرافضة ، وفي الاحتجاج بما يروونه ، فمنعت طائفة من السلف صحة ذلك لعله أنّهم كفّار عند من ذهب إلى إكفار المتأولين ، وفسّاق عند من لم يحكم بكفر متأول ، وممن لا يروى عنه ذلك مالك بن أنس . وقال من ذهب إلى هذا المذهب : إنّ الكافر والفسق بالتأويل بمثابة الكافر المعاند والفسق العامد فيجب أن لا يقبل خبرهما ولا تثبت روايتهما .

وذهبت طائفة من أهل العلم إلى قبول أخبار أهل الأهواء الذين لا يعرف منهم استحلال الكذب والشهادة لمن وافقهم بما ليس عندهم فيه شهادة ، وممن قال بهذا القول من الفقهاء أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي ، فإنه قال : وتقبل شهادة أهل الأهواء إلا الخطابية من الرافضة ، لأنهم يرون الشهادة بالزور لموافقهم ، وحكي أن هذا مذهب بن أبي ليلى وسفيان الثوري ، وروى مثله عن أبي يوسف القاضي .

وقال كثير من العلماء : يقبل أخبار غير الدعاة من أهل الأهواء ، فأما الدعاة فلا يحتج بأخبارهم ، وممن ذهب إلى ذلك أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل .

وقال جماعة من أهل النقل والمتكلمين : أخبار أهل الأهواء كلها مقبولة ، وإن كانوا كفّاراً وفسّاقاً بالتأويل . [[..

وفي النصوص التالية التي نقتبسها من كتاب الكفاية في علم الرواية لأكثر دليل لمن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ..

[[قد أسلفنا الحكاية عن أبي عبد الله الشافعي في جواز قبول شهادة أهل الأهواء غير صنف من الرافضة خاصة ، ويحكي نحو ذلك عن أبي حنيفة إمام أصحاب الرأي وأبي يوسف القاضي . [[..

[[أخبرني أحمد بن محمد بن أحمد الروياني قال ثنا محمد بن العباس الخزاز قال أنا أبو أيوب سليمان بن إسحاق الجلاب قال سمعت إبراهيم الحربي يقول سمعت علي بن الجعد يقول سمعت أبا يوسف يقول : أجزى شهادة أهل الأهواء أهل الصدق منهم إلا الخطابية والقدرية الذين يقولون إن الله لا يعلم الشيء حتى يكون]]

[[أخبرني أبو بشر محمد بن عمر الوكيل قال ثنا عمر بن أحمد بن عثمان الواعظ قال ثنا محمد بن الحسن المقرئ قال ثنا عبد الله بن محمود المروزي قال ثنا أحمد بن مصعب قال ثنا عمر بن إبراهيم قال سمعت ابن المبارك يقول سألت أبو عصمة أبا حنيفة ممن تأمرني أن أسمع الآثار؟ قال : من كل عدل في هواه إلا الشيعة ، فإن أصل عقدهم تضليل أصحاب محمد ﷺ ، ومن أتى السلطان طائعاً]]

[[فأخبرنا أبو بكر أحمد بن محمد بن غالب الخوارزمي قال فيما أجاز لي أبو العباس بن حمدان أن محمد بن أيوب أخبرهم قال أنا محمد بن أبان قال سمعت عبد الرحمن بن مهدي يقول من رأى رأياً ولم يدع إليه احتمال ، ومن رأى رأياً ودعا إليه فقد استحق الترك .]]

[[أخبرنا أحمد بن أبي جعفر قال أنا يوسف بن أحمد الصيدلاني بمكة قال ثنا محمد بن عمرو بن موسى العقيلي قال ثنا يحيى بن عثمان قال ثنا نعيم بن حماد قال سمعت ابن المبارك يقول وقيل له تركت عمرو بن عبيد وتحدثت عن هشام الدستوائي وسعيد وفلان وهم كانوا في عداه؟ قال إن عمراً كان يدعو .]]

[[أخبرنا عبد الغفار بن محمد بن جعفر المؤدب قال ثنا عمر بن أحمد الواعظ قال سمعت عثمان بن عبدويه الحربي يقول سمعت إبراهيم الحربي يقول قيل لأحمد بن حنبل يا أبا عبد الله سمعت من أبي قطن القدري؟ قال : لم أره داعية ولو كان داعية لم أسمع منه .]]

[[أخبرنا أبو بكر البرقاني قال قرأت على علي بن الحسين الكراعي المروزي بها حدثكم عبد الله بن محمود قال ثنا محمد بن عبد العزيز الأبيوردي قال سألت أحمد بن حنبل أيكذب عن المرجيء والقدري؟ قال : نعم يكتب عنه إذ لم يكن داعياً .]]

]] فأخبرنا أبو جعفر محمد بن جعفر بن علان الوراق قال أنا أبو الفتح محمد بن الحسين بن أحمد الأزدي الحافظ قال ثنا محمد بن عبده القاضي قال ثنا علي بن المديني قال قلت ليحيى بن سعيد القطان إن عبد الرحمن بن مهدي قال : أنا أترك من أهل الحديث كل من كان رأساً في البدعة ، فضحك يحيى بن سعيد فقال : كيف يصنع بقتادة ؟ ، كيف يصنع بعمر بن زر الهمداني ؟ ، كيف يصنع بابن أبي رواد ؟ ، وعد يحيى قوماً أمسكت عن ذكرهم ثم قال يحيى : إن ترك عبد الرحمن هذا الضرب ترك كثيراً . [[..

]] أخبرنا أبو الفتح منصور بن ربيعة بن أحمد الزهري الخطيب الدينوري قال أنا أبو القاسم علي بن أحمد بن علي بن راشد قال ثنا أحمد بن يحيى بن الجارود قال قال علي بن المديني : لو تركت أهل البصرة لحال القدر ، ولو تركت أهل الكوفة لذلك الرأي يعنى التشيع ، خربت الكتب ، قوله خربت الكتب يعنى لذهب الحديث . [[..

]] أخبرنا أحمد بن محمد بن أحمد الروياني قال ثنا محمد بن العباس الخزاز قال أنا سليمان بن إسحاق الجلاب قال قال إبراهيم الحربي قيل لأحمد بن حنبل في حديثك أسماء قوم من القدرية فقال : هو ذا نحن نحدث عن القدرية . [[..

]] أخبرنا أحمد بن أبي جعفر قال أنا محمد بن عدي بن زحر البصري في كتابه قال ثنا أبو عبيد محمد بن علي الآجري قال سمعت أبا داود سليمان بن الأشعث يقول ليس في أصحاب الأهواء أصح حديثاً من الخوارج ثم ذكر عمران بن حطان وأبا حسان الأعرج .

أخبرنا أبو بكر البرقاني قال أنا محمد بن عبد الله بن خميرويه الهروي قال أنا الحسين بن إدريس وسألته يعنى محمد بن عبد الله بن حماد الموصلي عن علي بن غراب ، فقال كان صاحب حديث بصيراً به ، قلت : أليس هو ضعيف ؟ قال : إنه كان يتشيع ولست أنا بتارك الرواية عن رجل صاحب حديث يبصر الحديث بعد أن لا يكون كذوباً للتشيع أو القدر ، ولست براو عن رجل لا يبصر الحديث ولا يعقله ، ولو كان أفضل من فتح يعنى الموصلي . [[..

]] أخبرني القاضي أبو عبد الله الصيمري قال ثنا علي بن الحسن الرازي قال ثنا محمد بن الحسين الزعفراني قال ثنا أحمد بن زهير قال سمعت يحيى بن معين وقيل له إن أحمد بن حنبل قال إن عبيد الله بن موسى يرد حديثه للتشيع فقال كان والله الذي لا إله إلا هو عبد الرزاق أغلى في ذلك منه مائة ضعف ، ولقد سمعت من عبد الرزاق أضعاف أضعاف ما سمعت من عبيد الله .

قرأنا على الحسن بن علي الجوهري عن أبي عمر بن حيويه قال ثنا أبو الطيب محمد بن القاسم الكوكبي قال ثنا إبراهيم بن عبد الله بن الجنيد الختلي قال سمعت يحيى بن معين ذكر حسيناً الأشقر فقال : كان من الشيعة الغالية الكبار ، قلت : وكيف حديثه ؟ قال : لا بأس به قلت : صدوق ؟ قال : نعم كتبت عنه عن أبي كدينة ويعقوب القمي .

أخبرنا محمد بن أحمد بن يعقوب أخبرنا محمد بن نعيم الضبي قال سمعت أبا عبد الله بن الأحرم الحافظ وسئل لم ترك البخاري حديث أبي الطفيل عامر بن واثلة ؟ قال لأنه كان يفرط في التشيع .

أخبرنا محمد بن أحمد بن يعقوب أنا محمد بن نعيم الضبي قال سمعت أبا عبد الله محمد بن يعقوب وسئل عن الفضل بن محمد الشعراني فقال : صدوق في الرواية إلا أنه كان من الغالين في التشيع ، قيل له : فقد حدثت عنه في الصحيح ؟ فقال : لأن كتاب أستاذي ملآن من حديث الشيعة - يعنى مسلم بن الحجاج - .]] ..

.. ولننظر في النصّ التالي المقتبس من كتاب : مقدّمة ابن الصلاح ..

]] اختلفوا في قبول رواية المبتدع الذي يكفر في بدعته : فمنهم من رد روايته مطلقاً ، لأنه فاسق ببذعته . وكما استوى في الكفر المتأول وغير المتأول يستوي في الفسق المتأول وغير المتأول . ومنهم من قبل رواية المبتدع إذا لم يكن ممن يستحل الكذب في نصرته مذهبه أو لأهل مذهبه ، سواء كان داعية إلى بدعته أو لم يكن . وعزا بعضهم هذا إلى الشافعي ، لقوله : أقبل شهادة أهل الأهواء إلا الخطابية من الرافضة ، لأنهم يرون الشهادة بالزور لموافقيهم . وقال قوم :

تقبل روايته إذا لم يكن داعية ، ولا تقبل إذا كان داعية إلى بدعته ، وهذا مذهب الكثير أو الأكثر من العلماء . وحكى بعض أصحاب الشافعي رضي الله عنه خلافاً بين أصحابه في قبول رواية المبتدع إذا لم يدع إلى بدعته ، وقال : أما إذا كان داعية ، فلا خلاف بينهم في عدم قبول روايته . وقال (أبو حاتم بن حبان البستي) ، أحد المصنفين من أئمة الحديث : الداعية إلى البدع لا يجوز الاحتجاج به عند أئمتنا قاطبة ، لا أعلم بينهم فيه خلافاً . وهذا المذهب الثالث أعدلها وأولاها ، والأول بعيد مُباعد للشائع عن أئمة الحديث ، فإن كتبهم طافحة بالرواية عن المبتدعة غير الدعاة . وفي (الصحيحين) كثير من أحاديثهم في الشواهد والأصول ، والله أعلم . [[

..

.. وكالعادة .. يتم الاختلاف في كل جزئية (مهما صغرت) من جزئيات ما يسمى بعلوم الحديث ، لننظر إلى النص التالي من كتاب : الكفاية في علم الرواية ..

[[اختلف أهل العلم في لفظ المعدل الذي تحصل به العدالة لمن عدله . فقال بعضهم : المقبول في ذلك أن يقول هو مقبول الشهادة لي وعلي . وقال آخرون : يكفي أن يقول هو عدل رضا . وقال غيرهم : يجب أن يقول هو عدل مقبول . ومنهم من قال : يكفيه أن يقول هو مقبول الشهادة ، وقال بعض أهل العراق : إذا قال لا أعلم إلا خيراً كان ذلك تعديلاً .]]

.. ولننظر إلى النص التالي المقتبس من كتاب : الكفاية في علم الرواية :

[[قال بعض الفقهاء : لا يجوز أن يقبل في تعديل المحدث والشاهد أقل من اثنين وردوا ذلك إلى الشهادة على حقوق الآدميين وأنها لا تثبت بأقل من اثنين وقال كثير من أهل العلم : يكفي في تعديل المحدث المزكي الواحد ، ولا يكفي في تعديل الشاهد على الحقوق إلا اثنان . وقال قوم من أهل العلم : يكفي في تعديل المحدث والشاهد تزكية الواحد إذا كان المزكي بصفة من يجب قبول تزكيته .]]

ما نراه في هذه النصوص جميعها أن المسألة من بدايتها إلى نهايتها هي مسألة رؤى مختلفة لبشر بالتأكيد ليسوا معصومين ، ونرى أنه لا يوجد ما يُسمى بالإجماع إلا في

الخطابات الرثانة التي تسقط فوق رؤوس العوام الذين يُجَيِّشون لمحاربة كلّ متدبّر لكتاب الله تعالى .. فهذه الجزئيات (مقدّمات ما يُسمّى بعلوم الحديث) فضلاً عن الاختلاف الشاسع بينها ، نرى أنّ العمل بما على أرض الواقع لتزكية الرجال ولفرزهم وفق أيّ جزئية من هذه الجزئيات المتناقضة أصلاً ، لا يمكن تجريده عن الأهواء والعصبيات ، فلا يمكن الوصول إلى إجماع حقيقي في تطبيق جزئية واحدة على رجل واحد .. فكيف إذاً يكون الأمر حينما تكون للجزئية الواحدة احتمالات تدور من النقيض إلى نقيضه ؟!!! ..

ومسألة التدليس هي مسألة مهمّة جداً في معرفة مصداقية ما وصلنا من روايات .. وبغض النظر عن كون المعدّلين من البشر ، ويحتمل فيهم الخطأ بذات نسبة احتمال الصواب في تعديل الآخرين ، وفي معرفة المدّلس منهم من غير المدّلس حسب رؤاهم المختلفة وحسب عصبيّاتهم المتباينة ، بغض النظر عن هذه الحقيقة ، نرى أنّهم اختلفوا اختلافاً شاسعاً في هذه المسألة (مسألة التدليس) .. لننظر إلى النصّ التالي من كتاب : مقدّمة ابن الصلاح ، لنعرف كيف عرفوا هم مسألة التدليس ..

]] التدليس قسمان : أحدهما : تدليس الإسناد ، وهو أن يروي عن لقيه ما لم يسمع منه ، موهماً أنه سمعه منه . أو : عن عاصره ولم يلقه ، موهماً أنه قد لقيه وسمعه منه . ثم قد يكون بينهما واحد وقد يكون أكثر ..

القسم الثاني : تدليس الشيوخ ، وهو : أن يروي عن شيخ حديثاً سمعه منه ، فيسميه ، أو يكتّبه ، أو ينسبه ، أو يصفه بما لا يعرف به ، كي لا يُعرف .]] ..

.. ولننظر في النصّ التالي المقتبس من كتاب : الكفاية في علم الرواية ، لنرى موقف بعض السابقين العاملين في مسألة الحديث من التدليس ..

]] أخبرنا علي بن محمد بن عبد الله بن بشران المعدل قال أنا علي بن محمد بن أحمد المصري قال ثنا عمر بن عبد العزيز بن مقلص قال سمعت أبي يقول سمعت الشافعي يقول قال شعبة بن الحجاج : التدليس أخو الكذب . أخبرنا أبو جعفر محمد بن جعفر بن علان الوراق قال أنا أبو

الفتح محمد بن الحسين الأزدي قال ثنا الحسن بن علي قال ثنا بندار قال ثنا غندر قال سمعت شعبية يقول : التدليس في الحديث أشد من الزنا ، ولأن أسقط من السماء أحب إليّ من أن أدلس . أخبرنا أبو بكر البرقاني قال أنا محمد بن عبد الله بن خميرويه الهروي قال أنا الحسين بن إدريس قال ثنا ابن عمار قال سمعت المعافي يقول سمعت شعبية يقول : لأن أزني أحب إليّ من أدلس ، فقلت له : يا أبا مسعود ما تقول أنت في التدليس ؟ قال أدنى ما فيه التزين . أخبرني أبو القاسم الأزهري قال ثنا عبد الرحمن بن عمر الخلال قال ثنا محمد بن أحمد بن يعقوب بن شيبه قال ثنا جدي قال سمعت سليمان بن حرب يقول سمعت جرير بن حازم يقول وذكر التدليس والمدلسين فعابه وقال : أدنى ما يكون فيه أنه يري الناس أنه سمع ما لم يسمع . وقال ثنا جدي قال سمعت الحسن بن علي يقول سمعت أبا أسامة يقول : خرب الله بيوت المدلسين ما هم عندي إلا كذابون . أخبرنا إبراهيم بن محمد بن سليمان الأصبهاني المؤدب قال أنا أبو بكر بن المقري قال ثنا علي بن محمد الرقي قال ثنا الميموني قال ثنا خالد بن خدّاش قال سمعت حماد بن زيد يقول : التدليس كذب ، ثم ذكر حديث النبي ﷺ : المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور ، قال حماد ولا أعلم المدلس إلا متشبعاً بما لم يعط . [] ..

.. بعد ذلك .. لننظر في النصّين التاليين المقتبسين من المرجع ذاته : الكفاية في علم الرواية .. لنرى كيف أنّ التدليس حسب تعريفهم هم له ، وحسب قولهم هم ، وفي كتبهم هم ، لم ينج منه إلا ما رحم ربّنا جلّ وعلا ..

[] أخبرني أبو القاسم الأزهري قال ثنا أحمد بن إبراهيم بن الحسن قال ثنا عبد الله بن محمد البغوي قال حدثني أحمد بن زهير قال سمعت يحيى يقول : الثوري أمير المؤمنين في الحديث وكان يدلس .

أخبرنا محمد بن جعفر بن علان قال أنا أبو الفتح محمد بن الحسين الحافظ قال ثنا الحسن بن علي قال ثنا محمد بن يحيى الأزدي قال سمعت يزيد بن هارون يقول قدمت الكوفة فما رأيت بها أحداً إلا وهو يدلس إلا مسعر بن كدام وشريكاً . وأخبار المدلسين تتسع وقد ذكرت أسماءهم وسقت كثيراً من رواياتهم المدلسة في كتاب التبيين لأسماء المدلسين فغنيت عن إعادتها في هذا الموضوع .

وقال فريق من الفقهاء وأصحاب الحديث : إنَّ خبر المدلس غير مقبول لأجل ما قدمنا ذكره من أن التدليس يتضمن الإيهام لما لا أصل له وترك تسمية من لعله غير مرضي ولا ثقة وطلب توهم علو الإسناد وإن لم يكن الأمر كذلك .

وقال خلق كثير من أهل العلم : خبر المدلس مقبول لأنهم لم يجعلوه بمثابة الكذاب ولم يروا التدليس ناقضاً لعدالته . وذهب إلى ذلك جمهور من قبل المراسيل من الأحاديث وزعموا أن نهاية أمره أن يكون التدليس بمعنى الإرسال .

وقال بعض أهل العلم : إذا دلس المحدث عن من لم يسمع منه ولم يلقه وكان ذلك الغالب على حديثه لم تقبل رواياته ، وأما إذا كان تدليسه عن من قد لقيه وسمع منه فيدلس عنه رواية ما لم يسمعه منه فذلك مقبول بشرط أن يكون الذي يدلس عنه ثقة .

وقال آخرون : خبر المدلس لا يقبل إلا أن يورده على وجه مبين غير محتمل للإيهام ، فإن أورده على ذلك قبل ، وهذا هو الصحيح عندنا]]

]] أخبرنا محمد بن جعفر بن علان الوراق قال قال لنا أبو الفتح الأزدي الحافظ قد كره أهل العلم بالحديث مثل شعبة وغيره التدليس في الحديث وهو قبيح ومهانة ، والتدليس على ضربين : فإن كان تدليساً عن ثقة لم يحتج أن يوقف على شيء وقبل منه ، ومن كان يدلس عن غير ثقة لم يقبل منه الحديث إذا أرسله حتى يقول حدثني فلان أو سمعت]]

.. من الذي يملك اليقين في أن يحدّد تحديداً كاملاً الثقة من غير الثقة المعيّنة في العبارات :]] فإن كان تدليساً عن ثقة لم يحتج أن يوقف على شيء وقبل منه ، ومن كان يدلس عن غير ثقة لم يقبل منه الحديث]] !!!؟ .. كيف يُحدّد البشر ويزكّوا بعضهم تزكيةً ينتج عنها إدخال نصوصٍ إلى المقدّس ، في الوقت الذي يقول الله تعالى لنا فيه بأنّ نبيّه ﷺ لم يكن يعلم هو ذاته بعض الذين مردوا على النفاق من أهل المدينة في عصره وبين يديه !!!؟ ..

﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ﴾ [التوبة :

[١٠١]

.. وبناء على تعريفهم هم للتدليس ، وعلى كون التدليس لم ينج منه إلا ما رحم ربّي ، وبناء على هذه الروايات التي هي نقطة من بحر الروايات التي تؤكّد ذلك ، ولو أبعدا - كما يريدون - معايرة هذه الروايات على كتاب الله تعالى ، واعتبرنا معيار السند فقط ، وبناء على قولهم هم : **[[تدليس الإسناد ، وهو أن يروي عن لقيه ما لم يسمع منه ، موهماً أنه سمعه منه .]]** ، بناء على ذلك ، هل يبقى هناك فارق كبير بين الرواية المنقطعة وغير المنقطعة !!!؟ .. أليست الرواية المنقطعة (التي يظهر فيها الانقطاع) فيها من الصدق ما هو أكثر من الرواية التي يُوهمنا فيها الراوي أنّه سمع من لم يسمع منه ، وذلك عبر منهج : **[[أن يروي عن لقيه ما لم يسمع منه ، موهماً أنه سمعه منه .]]** .. !!!؟

.. وبناء على ما رأينا في هذه المحطّة من اختلاف لم تنج منه جزئية واحدة من مقدمات ما يسمّونه بعلوم الحديث ، هل يبقى هناك فارقاً كبيراً بين الرواية الصحيحة (حسب معاييرهم المبنية على هذه الجزئيات) وبين الرواية غير الصحيحة !!!؟ ... هذه كلّها روايات ظنيّة الثبوت ، تأخذ مصداقيتها من موافقتها لكتاب الله تعالى .. لذلك فما يذرونه من رماد في أعين البسطاء من أنّ هذه الروايات بُني سندها على علم وعلى أصول ثابتة ، وما يجترّونه من أقوال بعض السابقين ويوهمون بأنّه علم لا يأتيه الباطل ، هذا كلّه كلام لا يلقى آذاناً مُصغية إلاّ عند من لا يعرف الحقيقة ، ولا يريد معرفتها ..

.. ألاّ يخجل من الله تعالى من يصنّف الرجال تصنيفاً يعتبره جزءاً من المقدّس ، عبر أدوات تاريخية صنعها بشرٌ لا يمكن تجرّدهم عن الخطأ ، ولا يمكنها ولا بأيّ شكلٍ من الأشكال أن ترتفع فوق مستوى الظن ، في الوقت الذي يقرأ فيه قول الله تعالى ..

﴿ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً ﴾ [يونس : ٣٦]

لقد وصل تجاسرهم على كتاب الله تعالى والاستهانة به إلى درجة أصبحوا يعتبرون بما رواياتهم فوق كتاب الله تعالى ، فكتاب الله تعالى الذي يصفه جلّ وعلا بقوله ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النحل : ٨٩] أصبحوا يرونه محتاجاً لرواياتهم ، بينما رواياتهم ليست محتاجة لكتاب الله تعالى ، لأنّها - حسب ما يذهبون - قاضية على كتاب الله تعالى .. لننظر في النص التالي من كتاب الكفاية في علم الرواية ..

[[أخبرنا أبو سعيد محمد بن موسى الصيرفي قال حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب الأصم قال ثنا محمد بن إسحاق الصغاني قال حدثنا روح بن عباد قال ثنا الأوزاعي عن مكحول قال قال القرآن أحوج إلى السنّة من السنّة إلى القرآن ، قال وقال يحيى بن أبي كثير السنّة قاضية على الكتاب ، ليس الكتاب قاضياً على السنّة .]]

.. أعتقد أنّ من يقرأ قولهم [[القرآن أحوج إلى السنّة من السنّة إلى القرآن]] ويقرأ قولهم [[السنّة قاضية على الكتاب ، ليس الكتاب قاضياً على السنّة]] ، وفي نفسه ولو ذرّة تقديرٍ وتقديسٍ لكتاب الله تعالى ، سيُدرِك - أكثر من قبل - حقيقة شكوى الرسول ﷺ في الآخرة ..

﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَرَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾ [الفرقان : ٣٠]

.. وهكذا نرى أنّ ما يُسمّى بعلوم الحديث مبنية على مقدّمات ظنيّة الثبوت مختلفة في كلّ جزئية إلى درجة التناقض ، يستخدمها بشر يخطئون ويصيبون ، وتحكمهم عصبيّاتهم المذهبيّة والطائفيّة والقبليّة والشخصيّة ، وبالتالي فكلّ ما ينتج عن هذه المقدّمات وتطبيقها لا يمكنه الارتقاء إلى مستوى اليقين ، وبالتالي هو ظنيٌّ يأخذ مصداقيّته من موافقته للنصّ المطلق (القرآن الكريم) الذي تعهد الله تعالى بحفظه ..

ولو أردنا نقل النصوص من أمّهات كتب الحديث وما يسمّى بعلومه ، والتي تبين عدم الاتّفاق على أيّ جزئية من جزئيات هذه المسألة وعلى مقدّماتها التي عبرها وصلتنا الروايات التي بين أيدينا ، لو أردنا ذلك ، لآتيننا بمئات النصوص التي تبين هذه الحقيقة ،

وذلك من الكتب ذاتها التي يعتمد عليها المطّبلون والمزّمرون في جعل هذه المقاربات علماً مقدّساً يريدون فرضه على الأمة ..

وما يجب أن نعلّمه أننا ننقل نصوصاً من كُتُبٍ هي في أصلها لا تخرج عن المنظومة التي تنبئ ما يسمّى بعلوم الحديث ، والأكثر من ذلك هي كُتُبُ تُعدّ المراجع التي يعتمدون عليها في البرهنة على حجّية هذه العلوم ، فكيف إذاً يكون الأمر من منظارٍ أكثر تجرّداً وأكثر بعداً عن الغرق في مستنقع التشبّث بالتاريخ ورواياته ورجالاته ؟!!! .. كيف يكون الأمر حينما ننظر إلى هذه الروايات من منظار قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا

عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الجاثية : ٦]

.. فما عرضناه من نصوص في هذه المحطّة وما سبقها من محطّات وما يتبعها ، يُثبت لمن يملك ذرّةً من عقل ومنطق أنّ مقدّمات ما يسمّى بعلوم الحديث جميعها صناعة بشرية محضّة ، مليئة بالأهواء والعصبانيات والأخطاء والاختلافات ، وبالتالي فما ينتج عن هذه الآليات من روايات لا يتعدّى مستوى الظن ..

.. وبالتالي فمقولة الإجماع والمنهجية العلمية فيما يُسمّى بعلوم الحديث ، لا وجود لها إلا في الخطابات الرنانة التي لا تهدف إلا إلى تغييب العقل ، وإلى ذرّ الرماد في الأعين الباحثة عن الحقيقة .. فالإجماع الحقيقي - بالنسبة للحديث وعلومه - هو أنّه لا يُوجد إجماع على هذه المقاربات التاريخية حتى بين واضعي آليات هذه المقاربات ، ولا تُوجد - في الحديث وعلومه - منهجية علمية خالية من الأخطاء والأهواء والعصبانيات المذهبية المسبقة الصنع ، وذلك عند السنّة والشريعة على حدّ سواء ..

إنّ المنهجية العلمية السليمة تقتضي ألاّ تحمل جميع المقدمات المؤدّية لأيّ نتيجة أيّ اختلاف وأيّ احتمال للخطأ .. وأيّ حلل واختلاف في مقدّمة واحدة من المقدمات التي تستند عليها النتيجة هو قدحٌ بهذه النتيجة ، وتقتضي هذه المنهجية أيضاً الصدق المطلق الخالي من أيّ هوى أو نسيان أو تعصّب وذلك في استعمال هذه المقدمات لفرز الرجال ومعرفة الراوي الصادق منهم والكاذب ، وأيّ نقصٍ عن المطلق في ذلك يقدر في النتائج الحاصلة عن هذا الفرز .. فكيف يكون الأمر إذا كانت المقدمات السابقة للنتيجة جميعها

ودون استثناء مليئة بالاختلاف واحتمالات الخطأ ولا يُوجد إجماع حقيقي على مقدّمة واحدة منها ، وهذا ما رأيناه في ما يُسمّى بعلوم الحديث ، فمقدّمات هذه المقاربات التاريخية من أولها إلى آخرها تحمل في كلّ مقدّمة منها اختلافاً لدرجة التناقض كما رأينا في هذه المحطّة وما سبقها .. وكيف يكون الأمر إذا كان الرجال (الذي يُسقطون على أرض الواقع هذه الاشتراطات المتناقضة لفرز الرواة) رجالاً لا يمكنهم التجرّد عن عصبياهم وعن بشريتهم. بما تحمل من خطأ ومن هوى ومن ضغطٍ مذهبيٍّ وطائفي وبالتالي فمن الجحود بكتاب الله تعالى وبالسنّة الشريفة الحق وبثوابت العلم والعقل والمنطق أن يُقال إنّ هذه المقاربات علمٌ يُدخّل نصوصاً من التاريخ إلى ساحة المقدّس ..